الفصل الخامس والعشرون

غـزوة تَبُـوك أو العُسْـرَة

أصـل التسمـية «تبـوك»:

روى مسلم[1] بسنده إلى معاذ أن رسول الله ﷺ قال: «ستأتون غدا إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئا حتى آتي». فهذا رسول الله ﷺ سماها تبوكا قبل أن يأتيها أحد، فلا وجه لقول غير هذا[2].

التسمية بغـزوة العسـرة:

جاءت تسميتها بغزوة جيش العسرة من الحديث الذي رواه البخاري[3] بسنده إلى أبي موسى الأشعري، قال: «أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسأله الحملان لهم إذ هم معه في جيش العسرة، وهي غزوة تبوك...» وعنون البخاري[4] لهذه الغزوة بقوله: (باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة). وحديث الأشعري واضح الدلالة على ما كان عليه الصحابة (رضي الله عنهم) من العسر الشديد في المال والزاد والركائب.

وروى مسلم[5] بسنده إلى أبي هريرة ما وقع للمسلمين في طريق هذه الغزوة من نقص في الزاد حتى مصوا النوى وشربوا عليه الماء. وفي رواية

---

(١) صحيح مسلم (٤/ ١٧٨٤/ح ٧٠٦)، وغيره.
(٢) انظر تفصيل ذلك عند السندي: الذهب المسبوك في تحقيق روايات غزوة تبوك، ص ٣٨ وما بعدها - وهي رسالة ماجستير مطبوعة.
(٣) الفتح (١٦/ ٢٣٨/ح ٤٤١٥).
(٤) الفتح (١٦/ ٢٣٧).
(٥) (١/ ٥٥ - ٥٦/ح ٢٧).

أخرى أنهم استأذنوا الرسول ﷺ في نحر مطاياهم ليأكلوا[٦].

ودل على هذه الضائقة الاقتصادية الآية الكريمة ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة﴾[٧][٨].

تاريخ الغزوة:

خرج الرسول ﷺ لهذه الغزوة في رجب من العام التاسع الهجري[٩]، بعد العودة من حصار الطائف بنحو ستة أشهر[١٠].

سبب الغزوة:

ذكر الواقدي[١١] وابن سعد[١٢] أن هرقل جمع جموعا من الروم وقبائل العرب الموالية لها، فعلم بهم الرسول ﷺ فخرج إليهم. وذكر اليعقوبي[١٣] أن سببها أخذ الثأر لجعفر بن أبي طالب.

وروى ابن عساكر[١٤] في سبب الخروج إلى تبوك أن اليهود أتوا الرسول ﷺ وقالوا له إن كنت صادقا بأنك نبي فالحق بالشام فإنها أرض المحشر والأنبياء، تغريرا بالمسلمين ليخرجوهم من المدينة ويعرضوهم لخطر المواجهة مع الروم، وعندما وصل تبوكا نزلت عليه آيات من سورة بني إسرائيل منها ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها﴾[١٥]، تفضح موقف اليهود، وأمره الله بالرجوع إلى المدينة حيث المهات والمحشر.

---

(٦) مسلم (١/٥٦/ح ٢٠٧).

(٧) التوبة: ١١٧.

(٨) وانظر تفسيرها عند الطبري: التفسير (١٤/ ٥٤٠ - ٥٤٢) والآثار الواردة في ذلك.

(٩) ابن إسحاق، معلقا - ابن هشام (٤/ ٢١٥)، ابن سعد (٢/ ١٦٥) معلقا.

(١٠) قال ابن حجر في الفتح (١٦/ ٢٣٧): «فإن غزوة تبوك كانت في شهر رجب من سنة تسع قبل حجة الوداع بلا خلاف، وعند ابن عائذ من حديث ابن عباس أنها كانت بعد الطائف بستة أشهر وليس مخالفا لقول من قال في رجب إذا حذفنا الكسور، لأنه ﷺ قد دخل المدينة من رجوعه من الطائف في ذي الحجة».

(١١) المغازي (٣/ ٩٨٩ - ٩٩٠) عن مجموعة من شيوخه.

(١٢) الطبقات (٢/ ١٦٥)، من رواية الواقدي.

(١٣) التاريخ (٢/ ٦٧).

(١٤) تاريخ دمشق (١/ ١٦٧ - ١٦٨) بإسناد مرسل ضعيف لأن فيه أحمد بن عبدالجبار العطاردي، وهو ضعيف، وقال ابن كثير: التفسير (٥/ ٩٨): «وفي هذا الإسناد نظر. والأظهر أن هذا ليس بصحيح». ويرده أن الآية مكية وسكن المدينة بعد ذلك كما قال ابن كثير في التفسير (٥/ ٩٧).

(١٥) الإسراء: ٧٦.

وقال ابن كثير[16] فعزم رسول الله ﷺ على قتال الروم، لأنهم أقرب الناس إليه، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله، وقد قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار، وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين﴾»[17].

والذي قاله ابن كثير هو الأقرب إلى الصواب. إضافة إلى أن الأمر الذي استقر عليه حكم الجهاد هو قتال المشركين كافة بما فيهم أهل الكتاب الذين وقفوا في طريق الدعوة وظهر تحرشهم بالمسلمين كما روى أهل السير.

الإنفاق في هذه الغزوة:

حث الرسول ﷺ الصحابة على الإنفاق في هذه الغزوة لبعدها وكثرة المشتركين فيها، ووعد المنفقين بالأجر العظيم من الله. فأنفق كل حسب مقدرته، وكان عثمان بن عفان أكثر المنفقين. ووردت في ذلك عدة أحاديث وآثار، منها:

روى البخاري[18]: وقال النبي ﷺ: «... من جهز جيش العسرة فله الجنة»، فجهزه عثمان. وروى من حديث أبي عبدالرحمن السلمي أن عثمان (رضي الله عنه) قال لمحاصريه أيام الدار: «ألستم تعلمون أنه قال: من جهز العسرة فله الجنة؟ فجهزته»، فصدقوه بما قال[19]، وروى من هذا الطريق وبنحوه الترمذي[20]، ولفظه: «أذكركم بالله، هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال في جيش العسرة: من ينفق نفقة متقبلة؟ والناس مجهدون معسرون، فجهزت ذلك الجيش؟ قالوا: نعم...». ومن طريق آخر من حديث ثُمامة بن حزن: «... أنشدكم الله وبالإسلام، هل تعلمون أني جهزت جيش العسرة من مالي؟ قالوا: اللهم نعم»[21].

---

(١٦) البداية والنهاية (٥/ ٣) والتفسير (٥/ ٩٨)، وانظر بقية أقواله في هذا المعنى في هذين المكانين.
(١٧) التوبة: ١٢٣.
(١٨) الفتح (١٤/ ١٩٤ - ١٩٥/ ك. الفضائل/ ب. مناقب عثمان/ ترجمة الباب) ـ معلقا.
(١٩) البخاري/ الفتح (١١/ ٢٥٠ - ٢٥١/ ح ٢٧٧٨).
(٢٠) صحيح سنن الترمذي للألباني (٣/ ٢٠٨/ ك. المناقب/ ح ٢٩١٩، ٣٩٦٥).
(٢١) المصدر نفسه، ص ٢٠٩.

وبلغت هذه المشاركة من عثمان ألف دينار. وعندما نثرها في حجر النبي ﷺ، أخذ يقلبها ويقول مرارا: ماضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم»[٢٢].

وقيل إن عثمان (رضي الله عنه) قدم أشياء عينية كالإبل وعدتها[٢٣]، وليس هناك ما يمنع ذلك، مادام قد ثبت أن الصحابة قد أقروا له بتجهيز جيش العسرة، كما هو ظاهر الأحاديث والآثار التي ذكرناها.

وروي أن عبدالرحمن بن عوف أنفق ألفي درهم، وهي نصف أمواله، لتجهيز جيش العسرة[٢٤]، وأن عمر تصدق بمائة أوقية[٢٥].

وقدم فقراء المسلمين جهدهم من النفقة على استحياء، ولذلك تعرضوا لسخرية وغمز ولمز المنافقين. فقد جاء أبوعُقَيل بنصف صاع من تمر وجاء آخر بأكثر منه، فلمزوهما قائلين: «ان الله لغني عن صدقة هذا!! وما فعل هذا الآخر إلا رياء»، فنزلت الآية ﴿الذين يلمزون المطَّوِّعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم﴾[٢٦].

---

(٢٢) أحمد: المسند (٥/٥٣)، صحيح سنن الترمذي (٣/٢٠٩/ح ٢٩٢٠، ٣٩٦٧) وحسنه الألباني، الحاكم: المستدرك (٣/١٠٢) وصححه ووافقه الذهبي، وفي إسناده كثير بن ابي كثير مولى أبي سمرة، وهو مقبول ـ انظر: التقريب، ص ٤٦٠، ووثقه العجلي وابن حبان، وهما متساهلان ـ انظر الميزان (٣/ ٤١٠)، ويبدو أن الألباني حكم على الحديث بالحسن لهذا السبب، ولما له من الشواهد.

(٢٣) الترمذي: السنن (٩/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠/ ك. المناقب/ ب. مناقب عثمان/ح ٣٧٠٠)، وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، لا نعرفه إلا من حديث السكن بن المغيرة»، والحاكم في المستدرك (٣/١٠٢) وصححه ووافقه الذهبي، ولكن فيه فرقد أبوطلحة، وهو مجهول (تهذيب التهذيب (٨/ ٢٦٤) فلا يسلم لهما بهذا التصحيح، ولعل هذا هو السبب في عدم تخريج الألباني له في صحيح سنن الترمذي. وانظر ما روي من أقوال في نفقة عثمان (رضي الله عنه) النقدية والعينية عند ابن حجر في الفتح (١١/ ٢٥٢) وحكمه ومناقشته لها.

(٢٤) انظر الروايات في هذا عند الطبري في تفسيره (١٤/ ٣٨٢ ـ ٣٩١)/ شاكر) عند تناوله تفسير قوله تعالى ﴿الذين يلمزون المطوعين...﴾ ـ التوبة: ٧٩. والروايات التي ساقها ضعيفة ولكنها تعتضد لتقوية الخبر تاريخيا.

(٢٥) ابن عساكر: تاريخ دمشق (١/ ٤٠٨ ـ ٤٠٩) بإسناد ضعيف، لأن فيه أحمد بن إبراهيم... ابن أرطاة، وهو صدوق، ومحمد بن عائذ ـ صدوق، وعثمان بن عطاء ـ ضعيف، ويستبعد أن يحث الرسول ﷺ على النفقة في هذه الغزوة ولا ينفق الصحابة أمثال عمر. فقد ثبت أنه أراد أن يسابق أبابكر في التصدق عندما أمرهم الرسول ﷺ بها، فجاء بنصف ماله، ثم جاء أبوبكر بكل ماله، فأقسم ألا يسابقه إلى شيء أبدا ـ رواه الترمذي في السنن (٩/ ٢٧٧/ ك. المناقب/ ب. مناقب أبي بكر/ح ٣٦٧٦). وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، ورواه غيره. ولم يذكر الحديث أن ذلك كان في غزوة تبوك، وإن كان لا يستبعد أن يكون ذلك كان فيها.

(٢٦) البخاري/ الفتح (١٧/ ٢١١ ـ ٢١٣/ح ٤٦٦٨).

وجاء أبو خَيثَمة الأنصاري بصاع تمر فلمزوه أيضا[٢٧]، ولعله هو المعني ايضا في حديث الطبري[٢٨] في إنفاق ابن عوف، وفيه أن رجلا من الأنصار قال: «. . . وإن عندي صاعين من تمر: صاعا لربي وصاعا لعيالي»، فلمزه المنافقون، وقالوا: «ما أعطى ابن عوف هذا إلا رياء»، وقالوا: «أو لم يكن الله غنيا عن صاع هذا؟» فأنزل الله الآية: ﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين. . .﴾.

وواضح من هذا أنهم يتهمون الأغنياء بالرياء ويسخرون من صدقة الفقراء.

وروي أن عُلْبة بن زيد بن حارثة عندما لم يجد ما يتصدق به، جاء إلى الرسول ﷺ فقال: «اللهم إنه ليس عندي ما أتصدق به، اللهم إني أتصدق بعرضي على من ناله من خلقك»، فأمر رسول الله ﷺ مناديا فنادى اين المتصدق بعرضه البارحة، فقام علبة، فقال الرسول ﷺ: «قد قبلت صدقتك»[٢٩].

لقد كان علبة بن زيد واحدا من سبعة رجال من المؤمنين عرفوا بـ «البكائين»، أتوا رسول الله ﷺ يطلبون منه ما يخرجون عليه معه في هذه الغزوة، فلم يجد ما يحملهم عليه، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون.

وأرسل جماعة من الأشعريين أبا موسى الأشعري إلى الرسول ﷺ يطلبون منه ما يركبونه، فكان في لحظة غضب، فلم يحصل لهم منه على شيء، فعاد إليهم حزينا. وبعد قليل أرسل الرسول ﷺ بلالا إلى أبي موسى، فجاءه، فأعطاه ستة أبعرة ابتاعهن من سعد ليركبها مع أصحابه الأشعريين[٣٠]، وفي رواية أنه أعطاهم خمس ذَوُد عندما أُتيَ بِنَهْبِ إبل[٣١].

---

(٢٧) مسلم (٤/ ٢١٢١ - ٢١٢٢/ح ٢٧٦٩).

(٢٨) التفسير (١٤/ ٣٨٦/ح ١٧٠١٠/شاكر) بإسناد حسن لغيره، لما له من شواهد ومتابعات ذكرها الطبري عند تفسير الآية المذكورة.

(٢٩) انظر ابن حجر: الإصابة (٢/ ٥٠٠) من حديث مجمع بن حارثة وعمرو بن عوف، وابي عبس، موصولا، وقد صححه الالباني في تعليقه على فقه السيرة للغزالي، ص٤٣٩، وانظر الدراسة الوافية، عن هذا الخبر عند الدكتور السندي: الذهب المسبوك. . . الفصل (٢٣).

(٣٠) البخاري/ الفتح (١٦/ ٢٣٨ - ٢٣٩/ح ٤٤١٥).

(٣١) البخاري/ الفتح (١٦/ ٢٢٣/ح ٤٣٨٥).

وذكرت بعض الروايات أنه نزل في البكائين والأشعريين قوله تعالى: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله، ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم. ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حَزَنا ألا يجدوا ما ينفقون﴾[٣٢][٣٣].

إنها صورة مؤثرة للرغبة الصحيحة في الجهاد على عهد الرسول ﷺ، وما كان يحسه صادقو الإيمان من ألم إذا ماحالت ظروفهم المادية بينهم وبين القيام بواجباته، وكان هؤلاء المعوزون وغيرهم ممن عذر الله لمرض أو كبر سن أو غيره يسيرون بقلوبهم مع المجاهدين، وهم الذين عناهم الرسول ﷺ عندما قال: «إن بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم. قالوا: يارسول الله، وهم بالمدينة؟! قال: وهم بالمدينة حبسهم العذر»[٣٤].

موقف المنافقين من غزوة تبوك:

عندما أعلن الرسول ﷺ النفير ودعا إلى الإنفاق في تجهيز هذه الغزوة، أخذ المنافقون في تثبيط همم الناس، قائلين لهم: لا تنفروا في الحر، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وقالوا لا تنفروا في الحر، قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون. . .﴾[٣٥][٣٦].

وقال رسول الله ﷺ ذات يوم ـ وهو في جهازه لتبوك ـ للجد بن قيس: «ياجد! هل لك العام في جلاد بني الأصفر؟» فقال: «يارسول الله او تأذن

---

(٣٢) التوبة: ٩١ ـ ٩٢.

(٣٣) انظر الطبري: التفسير (١٤/ ٤١٩ ـ ٤٢٣/ شاكر)، وقد أورد عدة آثار في سبب نزول هذه الآية، وأصح الأقوال أنها نزلت في أبي موسى الأشعري وأصحابه إذ أخرج ذلك أحمد في مسنده (٤/ ٣٩٨) بسند صحيح. وذكر ابن جرير أثرا بإسناد حسن: التفسير (١٤/ ٤٢٢/ ح ١٧٠٨٦) بأنها نزلت في العرباض بن سارية، وقال السندي: الذهب المسبوك، ص ٢٤٠، إنه لا مانع من أن تكون نزلت في جملة من البكائين ومنهم العرباض بن سارية.

(٣٤) البخاري/ الفتح (١٦/ ٢٥٦/ ح ٤٤٣٣).

(٣٥) التوبة: ٨١ ـ ٨٢.

(٣٦) ابن إسحاق، بإسناد مرسل من حديث أربعة من شيوخه الثقات وغيرهم ـ ابن هشام (٤/ ٢١٧). وقد روى هذا المتن من طرق أخرى صحيحة، كما قال الدكتور السندي: الذهب المسبوك، ص ١٥٥. وانظر في ذلك: السيوطي: الدر المنثور (٣/ ٣٦٥)، والقرطبي: التفسير (٨/ ٢١٦)، والشوكاني: فتح القدير (٢/ ٣٧١)، والطبري: التفسير (١٤/ ٣٩٩ ـ ٤٠٠).

لي ولا تفتني؟ فوالله لقد عرف قومي أنه مامن رجل بأشد عجبا بالنساء مني وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر»، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وقال: «قد أذنت لك»، ففيه نزلت الآية: ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني، ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾[٣٧][٣٨].

وذهب بعضهم إلى النبي ﷺ مبدين أعذارا كاذبة ليأذن لهم بالتخلف، فأذن لهم، فعاتبه الله بقوله تعالى: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾[٣٩][٤٠].

وبلغ رسول الله ﷺ أن ناسا منهم يجتمعون في بيت سُوَيْلِم اليهودي يثبطون الناس عن رسول الله ﷺ، فأرسل إليهم من أحرق عليهم بيت سويلم[٤١].

ووصلت بهم الجرأة على الله ورسوله أن يبنوا مسجدا قُبيل غزوة تبوك ليجتمعوا فيه ويديروا حلقات تآمرهم على المسلمين، ويأملوا في مجيء أبي عامر الفاسق من عند الروم بجيش يغزو المدينة. وزعموا أنهم بنوه للمنفعة والتوسعة على أهل الضعف والعلة ومن عجز عن المسير إلى مسجد

---

(٣٧) التوبة: ٤٩.

(٣٨) رواه ابن إسحاق، معلقا - ابن هشام (٤/ ٢١٦ - ٢١٧) والطبري: التفسير (١٤/ ٢٨٧ - ٢٨٨)، مرة من طريق ابن إسحاق وقد عنعنه بإسناد منقطع وموقوف على أئمة شيوخه: الزهري وابن رومان وعبدالله بن أبي بكر وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم، ومرة من طريق غيره بأسانيد. إمّا من مرسل قتادة، وسنده ضعيف، أو من مرسل مجاهد، وسنده ضعيف، أو من حديث ابن عباس وسنده ضعيف ورواه أبونعيم وابن مردويه فيما عزاه إليهما ابن حجر في الإصابة (١/ ٢٢٨) وضعف إسناديهما، والطبراني في الكبير (٢/ ٣٠٨) والأوسط، وفيه يحيى بن الحماني وهو ضعيف كما في مجمع الزوائد للهيثمي (٧/ ٣٠) وحديث الطبراني إذا عضده حديث الطبري عن ابن عباس، وورود هذه الآثار عن التابعين، يشعر بأن للحديث أصلا، ولعل هذا الذي جعل الطبري يقول بأن الأخبار تظاهرت عن أهل التأويل بنزولها في الجد بن قيس، ويقول: فكفى بالجد بن قيس وأشكاله من المنافقين يصلى النار خزيا. ولا يسلم له الأستاذ عداب الحمش في كتابه: ثعلبة بن حاطب الصحابي المفترى عليه، ص ص ١٠١ - ١٠٢ بهذه النتيجة، وقال إن الجزم بنفاق الجد ابن قيس تسرع يربأ بنفسه عنه لأن الكبائر لا تجعل صاحبها منافقا، إلا إذا عنى به النفاق العملي، علما بأن ابن عبدالبر ذكر بصيغة التمريض أن الجد بن قيس تاب فحسنت توبته - الاستيعاب (١/ ٢٥١). قلت: وتهمة كهذه لابد لها من إسناد يحتج به.

(٣٩) التوبة: ٤٣.

(٤٠) الطبري: التفسير (١٤/ ٢٧٣/ شاكر) من مرسل مجاهد بإسناد صحيح إليه.

(٤١) رواه ابن هشام بإسناد منقطع (٤/ ٢١٧ - ٢١٨). فهو ضعيف.

الرسول ﷺ للصلاة فيه، وطلبوا من الرسول ﷺ أن يصلي فيه خداعا للناس، ولكن الله فضح حقيقة نواياهم عندما أنزل في هذا الآيات: ﴿والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون. لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه. فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطَّهرين﴾[٤٢][٤٣]. فامتنع الرسول ﷺ عن الصلاة فيه، ثم أحرقه عندما عاد من تبوك، ومنعه الله من الصلاة على أمواتهم بعد أن صلى على عبدالله بن أبي بن سلول عقب عودته من تبوك، وذلك في قوله ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره﴾[٤٤][٤٥].

وقد تخلف منهم جماعة كما ثبت في حديث كعب بن مالك في قوله: «فكنت إذا خرجت في الناس... أحزنني أني لا أرى إلا رجلا مغموسا بنفاق أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء...»[٤٦].

وخرج بعضهم مع الرسول ﷺ لعلهم يتحينون الفرص للتخذيل، كما سترى.

لقد استنفر الرسول ﷺ المسلمين للخروج في هذه الغزوة، وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة ﴿ياأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا إلا قليل﴾[٤٧]، وكان تثاقلهم بسبب مجيء وقت جني التمر وطيب ثمره

---

(٤٢) التوبة: ١٠٧ - ١٠٨.

(٤٣) من رواية الطبري: التفسير (١٤/ ٤٧٠/ح ١٧٨٧/ شاكر) بإسناد صححه الدكتور السندي: الذهب المسبوك، ص٣١٦، وقال: «وقد احتج به أهل التفسير، ورجاله ثقات ماعدا المثنى وعبدالله ابن صالح»، وانظر الروايات في هذا عند السندي: الذهب المسبوك، ص ص ٣١٤ - ٣١٩، والطبري: التفسير (١٤/ ٤٦٨ - ٤٧٥).

(٤٤) التوبة: ٨٤.

(٤٥) البخاري/ الفتح (٦/ ١٦٨/ح ١٢٦٩)، مسلم (٤/ ٢١٤١/ح ٢٧٧٤).

(٤٦) من حديث كعب بن مالك المتفق عليه، كما سيأتي ذكره، وقد سبق الإشارة إليه.

(٤٧) التوبة: ٣٨.

واشتهاء الظلال لشدة الحر[٤٨]، وبعد المسافة ومشقة السفر، كما ذكرت الآية ﴿لو كان عرضاً قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم، يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون﴾[٤٩][٥٠].

وتخلف عن الغزوة كثير من الأعراب والمنافقين، وعدد قليل من الصحابة من أهل الأعذار، وثلاثة ممن لم يكن لهم عذر عن الجهاد، وسيأتي ذكرهم.

موقف المؤمنين من الخروج إلى تبوك:

عندما كشف الرسول ﷺ للمسلمين عن وجهته خلافا لما كان يفعل في مثل هذه الغزوات الكبيرة، ليتهيأ المسلمون إلى الجهاد[٥١]، سارع المؤمنون إلى مرافقة الرسول ﷺ ولم ينظروا إلى ما سيلاقونه من مشقة، ولم تفتنهم طيبات الحياة الدنيا بالمدينة، فها هو علي بن أبي طالب لا يرضى أن يخلفه الرسول ﷺ في أهله، فيلحق بالرسول وهو نازل بالجرف ويقول: «يارسول الله، تخلفني في النساء والصبيان؟» فقال له الرسول ﷺ: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبي بعدي»[٥٢].

وها هو أبو خيثمة الأنصاري وقد سارع إلى حسم الصراع الدائر في نفسه بين البقاء والخروج، ثم يؤثر الخروج رغبة في ما عند الله، وفي ذلك يقول: «تخلفت عن رسول الله ﷺ، فدخلت حائطا لي ـ بستانا ـ فرأيت عريشا قد رش بالماء، ورأيت زوجتي فقلت: ماهذا بإنصاف، رسول الله ﷺ في

---

(٤٨) من مرسل مجاهد كما رواه الطبري في التفسير (١٠/١٣٣)، ورجاله ثقات، ولكن فيه عنعنة عبدالله ابن أبي نجيح المكي وهو مدلس. وذكر الواقدي في المغازي (٣/٩٩٠) أن الرسول ﷺ أرسل رسلا إلى القبائل يستنفرها للخروج إلى تبوك، ولا يستبعد ذلك لأن ظاهر الآية يدل على عموم الاستنفار لمن كان داخل المدينة أو خارجها، إضافة إلى أن الرسول ﷺ كان قد استنفر القبائل لفتح مكة كما ثبت في الصحيح، وذكرناه في مكانه.

(٤٩) التوبة: ٤٢.

(٥٠) انظر الطبري: التفسير (١٤/٢٧٢/ ١٦٧٦٠ ـ ١٦٧٦١) بإسناد حسن إلى قتادة، لكنه مرسل.

(٥١) من رواية البخاري/ الفتح (١٦/٢٤٢/ح ٤٤١٨).

(٥٢) البخاري/ الفتح (١٦/٢٤٠/ح ٤٤١٦) ومسلم (٤/١٨٧٠ ـ ١٨٧١/ح ٢٤٠٤) وغيرهما. وذكر الجرف عند ابن إسحاق، بإسناد مرسل ـ ابن هشام (٤/٢٢١). وهو موضع على بعد ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام ـ معجم البلدان (٢/١٨٧).

السموم والحرور، وأنا في الظل والنعيم، فقمت إلى ناضح لي وتمرات فخرجت، فلما طلعت على العسكر فرآني الناس، قال النبي ﷺ: «كن أبا خيثمة، فجئت فدعا لي»(٥٣).

ويروى أن أباذر عندما أبطأ عليه بعيره أخذ متاعه فحمله على ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشيا، وعندما نزل رسول الله ﷺ في بعض منازله رأى أحد المسلمين رجلا يمشي وحده فأخبر الرسول ﷺ، فقال: «كن أباذر»، فعندما وصل كان هو أباذر، فقال رسول الله ﷺ: «رحم الله أبا ذر، يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده»(٥٤).

وعندما أقام أبوذر بالرَّبَذَة في عهد عثمان (رضي الله عنه) لم يكن معه أحد إلا امرأته وغلامه، فأوصاهما بأن يغسلاه ويكفناه إذا مات، ثم يضعاه على قارعة الطريق ويطلبا الإعانة على دفنه من أول ركب يمر بهما، ففعلا، ويومها أقبل ابن مسعود في رهط من أهل العراق عُمارا، وكادت إبلهم أن تطأ الجنازة، وقام إليهم الغلام، فقال: هذا أبوذر، صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه، فبكى ابن مسعود وقال: «صدق رسول الله ﷺ: تمشي وحدك وتموت وحدك، وتبعث وحدك»، ثم نزل هو وأصحابه فدفنوه، ثم

---

(٥٣) أخرجه الطبراني كما قال ابن حجر في الفتح (١٦/ ٢٤٤)، ابن إسحاق، مرسلا ـ ابن هشام (٤/ ٢٢٢)، وابن حجر في الفتح (١٦/ ٢٤٤)، الواقدي (٣/ ٩٩٨ ـ ٩٩٩)، والحديث من هذه الطرق ضعيف ولكن يشهد له ورود بعض القصة في صحيح مسلم في أثناء قصة كعب (٤/ ٢١٢٢/ ٢٧٦٩). وأبوخيثمة هو عبدالله بن خيثمة السالمي كما عند الواقدي (٣/ ٩٩٨)، وعند الزهري: مالك بن قيس كما ذكر ابن حجر في الفتح (١٦/ ٢٤٤).

(٥٤) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٥٠ ـ ٥١) وصححه ووافقه الذهبي، ثم قال: «وفيه إرسال»، والبيهقي في الدلائل من طريق ابن إسحاق وقد صرح بالسماع، وفي سنده بريدة بن سفيان، وفيه كلام، انظر: ميزان الاعتدال (١/ ٣٠٦)، ورواه ابن كثير في البداية (٥/ ١٠ ـ ١١) من هذا الطريق وحسنه. وقد ساق خبر إبطاء بعيره به وخبر موته مساقا واحدا. وفي سيرة ابن هشام ذكر ابن إسحاق خبر الإبطاء معلقا وساق خبر الوفاة بمثل إسناد البيهقي وابن كثير.
وروى خبر الوفاة أحمد في المسند: الفتح الرباني (٢٢/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥) ـ من غير طريق ابن إسحاق، مع اختلاف يسير عن رواية الحاكم. قال الهيثمي في المجمع (٩/ ٣٣٢): رواه أحمد من طريقين إحداهما هذه والأخرى مختصرة عن إبراهيم بن الأشتر عن أم ذر، ورجال الطريق الأولى رجال الصحيح. قال محققا سيرة ابن هشام: «ولولا ابن الأشتر لكان سند الثانية حسنا»، وهو ممن لم يوثقه غير ابن حبان ـ انظر: تعجيل المنفعة، ص ٢٠.
ورواه ابن سعد (٤/ ٢٣٢ ـ ٢٣٤) بمثل رواية أحمد، وحسنه الدكتور السندي: الذهب المسبوك، ص ٣٠٧، ٣٠٩.
والخلاصة: إن السندي ومحققا سيرة ابن هشام قد حسنوا سند خبر الوفاة لطرقه، فانظرهم.

حدثهم حديثه وما قال له رسول الله ﷺ في مسيره إلى تبوك[٥٥].

وهذه معجزة من معجزات الرسول ﷺ الكثيرة في هذه الغزوة وغيرها كما هو معلوم.

عدد الصحابة في جيش تبوك:

تباينت الروايات في ذلك. ففي رواية معقل عن كعب بن مالك، قال: «وغزا رسول الله ﷺ بناس كثير يزيدون على عشرة آلاف، ولا يجمعهم ديوان حافظ[٥٦]». وفي رواية أخرى عنه: «المسلمون مع رسول الله كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ - يريد بذلك الديوان»[٥٧]. وقال ابن حجر[٥٨]: «وللحاكم في الإكليل من حديث معاذ: خرجنا مع رسول الله ﷺ غزوة تبوك زيادة على ثلاثين ألفا، وبهذا العدد جزم ابن إسحاق». وروى الواقدي[٥٩] عن زيد بن ثابت أنهم كانوا ثلاثين ألفا، وفي رواية أخرى له: «وكان الناس مع رسول الله ﷺ ثلاثين ألفا ومن الخيل عشرة آلاف فرس»[٦٠]، وقد نقل عن أبي زُرعة الرازي أنهم كانوا أربعين ألفا[٦١]، وقال ابن حجر[٦٢] في تعليقه على بعض هذه الروايات: «فتحمل رواية معقل عن كعب على إرادة عدد الفرسان». وقال أبوزرعة الرازي: «وكانوا سبعين ألفا». وجمع بعض الأئمة بين قوله وقول ابن إسحاق بأن أبازرعة عد التابع والمتبوع، وابن إسحاق عد المتبوع فقط[٦٣].

والمشهور والراجح أن جيش تبوك كان ثلاثين ألفا، وهو ما اتفق عليه

---

(٥٥) انظر الحاشية نفسها.
(٥٦) مسلم (٤/ ٢١٢٩/ح ٢٧٦٩).
(٥٧) مسلم (٤/ ٢١٢١/ح ٢٧٦٩).
(٥٨) الفتح (١٦/ ٢٤٢) ولا توجد رواية ابن إسحاق في المطبوع المتداول والمحفوظ - انظر في هذا السندي: الذهب المسبوك، ص ١٧٨.
(٥٩) المغازي (٣/ ٩٩٦) بإسناد موصول.
(٦٠) المغازي (٣/ ١٠٠٢) بإسناد له عن شيوخه، ابن سعد (٢/ ١٦٦) من رواية شيخه الواقدي.
(٦١) قاله ابن حجر في الفتح (١٦/ ٢٤٢).
(٦٢) الفتح (١٦/ ٢٤٢).
(٦٣) انظر: تاريخ ابن أبي خيثمة - الجزء الخمسون - ص ١٢٣.

أئمة المغازي والسير: ابن إسحاق والواقدي وابن سعد، وليس هناك تعارض مع ماجاء في الصحيح، والله أعلم.

المتخلفون عن غزوة تبوك:

لقد تخلف عن غزوة تبوك، من غير ذوي الأعذار والمنافقين، ثلاثة من خيار الصحابة، وهم: كعب بن مالك ومُرَارَة بن الربيع العَمْري، وهِلَال ابن أُمَيَّة الواقفي، فقد غلبهم التسويف والميل إلى الراحة. وروى كعب (رضي الله عنه) قصته في هذا التخلف، في حديث طويل، رواه البخاري(٦٤) ومسلم(٦٥) وغيرهما، وجاء فيه:

«كان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة... وطفقت أغدو لكي أتجهز مع المسلمين، فأرجع ولم أقض شيئا، فأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد ولم أقض من جهازي شيئا. ولم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو - أي فاتوا - وهممت أن أرتحل فأدركهم. فياليتني فعلت. فلم يقدر لي ذلك. فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم، أحزنني أني لا أرى إلا رجلا مغموسا بنفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء... ولما بلغني أنه توجه قافلا حتى حضرني همي، فطفقت أتذكر الكذب، وأقول بماذا سأخرج من سخطه غدا؟!... واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، ولما قيل إن رسول الله ﷺ قد أقبل، زاح عني الباطل وأجمعت أن أصدقه، فجئته، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال: تعال، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ فقلت: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلا، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب

---

(٦٤) البخاري/ الفتح (١٦/ ٢٤١ - ٢٥٣/ح ٤٤١٨).
(٦٥) مسلم (٤/ ٢١٢٠ - ٢١٢٨/ح ٢٧٦٩).

ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عفو الله. والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك! فقال رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك. فقمت، وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني يؤنبونني (أي يعتبون عليه أنه لم يعتذر كالآخرين) فقلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ فقالوا: نعم، رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت من هما؟ فقالوا: مرارة بن الربيع وهلال بن أمية. فذكروا لي رجلين صالحين شهدا بدرا(٦٦) لي فيهما أسوة... ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا ـ أي الثلاثة ـ فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا، حتى تنكرت لي الأرض، فما هي بالتي أعرفها. فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريبا منه أسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني. وبينما أنا أمشي بسوق المدينة، إذا نَبَطِيّ من أَنْبَاط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدلني على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءني دفع إلي كتابا من ملك غَسَّان، فإذا فيه: «أما بعد فإنه قد بَلَغَني أن صاحبك قد جفاك، ولم يَجْعَلْكَ الله في دار هوان ولا مَضْيَعَة، فالحق بَنا نواسك»، فقلت لما قرأتها: وهذا أيضا من البلاء، فتيممت بها التَّنُّور فسجرته بها. حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل

---

(٦٦) قال ابن القيم في زاد المعاد (٣/٥٧٧): «هذا الموضع مما عد من أوهام الزهري راوي هذا الخبر، فإنه لا يحفظ عن أحد من أهل المغازي والسير البتة ذكر هذين الرجلين في أهل بدر...» قلت: ذكر ابن حجر في الإصابة (٤/٦٠٧) أن هلال بن أمية شهد بدرا، وأن مرارة بن الربيع كذلك شهدها على الصحيح: الإصابة (٤/٣٩٦) وابن حجر ليس من أهل المغازي والسير.

اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبيّ بمثل ذلك. فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر. فلبثت بعد ذلك عشر ليالٍ حتى كملت لي خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا. فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا. فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله «قد ضاقت علي نفسي وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سَلَع بأعلى صوته: ياكعب بن مالك أبشر. فخررت ساجدا، وعرفت أنه قد جاء فرج، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبَلَ صاحبَيّ مبشرون... ولما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، نزعت له ثوبيّ فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فتلقاني الناس فوجا فوجا يهنئوني بالتوبة. فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك. قلت: أمن عندك يارسول الله أم من عند الله؟ قال: لا بل من عند الله. فقلت يارسول الله! إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله. قال رسول الله ﷺ: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك. فقلت: يارسول الله، إنما نجاني الصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا مابقيت. وأنزل الله تعالى على رسوله ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار﴾ إلى قوله ﴿وكونوا مع الصادقين﴾... وكنا تخلفنا نحن الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه. فبذلك قال الله تعالى ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾ وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو، إنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه».

وجاء في حديث كعب هذا أن الذين تخلفوا عن هذه الغزوة كانوا بضعة وثمانين رجلا، اعتذروا للرسول ﷺ عن تخلفهم فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله، ويتطابق هذا العدد مع ما ذكره

الواقدي[٦٧]، وقد زاد الواقدي، بأن المعذرين من الأعراب كانوا أيضا اثنين وثمانين رجلا من بني غِفار وغيرهم، وأن عبدالله بن أبي بن سلول ومن تابعه من قومه كانوا من غير هؤلاء، وكانوا عدداً كثيرا، وروى هو وابن سعد[٦٨] وابن إسحاق[٦٩] أن ابن أبي خرج حتى وصل جبل ذباب بالمدينة ومعه حلفاؤه من اليهود والمنافقين، فكان يقال: ليس عسكر ابن أبي بأقل العسكرين، فلما سار الرسول ﷺ تخلف عنه فيمن تخلف من المنافقين، وكل هذا لم يثبت بطرق صحيحة.

وكان من يتخلف يظن أن لا أحد يتفقده لكثرة أفراد الجيش، ولكن الرسول ﷺ تفقد وهو في طريقه إلى تبوك بعض من تخلف، فقد سأل أبارِهْم كلثوم بن حصين الغفاري عمن تخلف من بني غفار وأسلم[٧٠]، وعندما وصل تبوك سأل عن كعب بن مالك[٧١].

المسلمون في تبوك:

قيل إن الرسول ﷺ خطب الناس خطبة طويلة في تبوك، قال فيها: «أيها الناس، أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق العرى كلمة التقوى، وخير الملل ملة إبراهيم، وخير السنن سنة محمد، وأشرف الحديث ذكر الله، وأحسن القصص هذا القرآن، وخير الأمور عوازمها، وشر الأمور محدثاتها، وأحسن الهدى هدي الأنبياء، وأشرف الموت قتل الشهداء، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى، وخير الأعمال ما نفع، وخير الهدى ما اتبع،

---

(٦٧) المغازي (٣/٩٩٥). والواقدي متروك في الحديث مع سعه علمه، فأسانيده ضعيفة.

(٦٨) الطبقات (٢/١٦٥). من رواية شيخه الواقدي. والواقدي متروك، فأسانيده ضعيفة.

(٦٩) ابن هشام (٤/٢١٩) بإسناد مرسل، وساق هو والواقدي وابن سعد هذه الجزئية بصيغة التمريض، مما يدل على عدم قبولهم لها. ولهم أن يشكوا في هذا خاصة ذكر اليهود وبهذا العدد الذي لا يتمشى مع منطق الأحداث التي وقعت بين المسلمين واليهود. ويستبعد أن يكون لهم وجود يذكر دعك من أن تكون لهم مثل هذه الشوكة والعداء والتخذيل السافر، إضافة إلى أن الخبر لم يأت بطرق صحيحة.

(٧٠) من رواية ابن إسحاق، موصولا من حديث الزهري، ولم يصرح فيه ابن إسحاق بالسماع، وفيه ابن أخي أبي رهم الذي لم يعرفه الهيثمي كما في المجمع (٦/١٩٢) ـ انظر: ابن هشام (٤/٢٣٤ ـ ٢٣٦)، ووردت من طريق معمر عن الزهري كما في موارد الظمآن، ص٤١٨، فبذلك تقوى الرواية إلى الحسن لغيره كما قال السندي: الذهب المسبوك، ص٢٤٥.

(٧١) البخاري/ الفتح (١٦/٢٤٤/ح ٤٤١٨).

وشر العمى عمى القلب. . .»[٧٢].

وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد الى أُكَيْدِر دُوْمَة الجندل فأخذوه، فأتوا به إلنبي ﷺ فحقن له دمه وصالحه على الجزية[٧٣].

وعندما أخذوه كان يصيد البقر خارج حصنه، وهي الهيئة التي ذكرها الرسول ﷺ لخالد ـ أنهم سيجدونه عليها[٧٤]. وقد تعجب المسلمون من قباء كان يلبسه أكيدر، واستلبه منه خالد وأرسله إلى النبي ﷺ، فقال لهم النبي ﷺ: أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا»[٧٥].

وفي الصحيح أن أكيدر أهدى رسول الله ﷺ حلة من حرير[٧٦]، فعجب الناس منها، فقال: «والذي نفس محمد بيده. . .» الحديث بمثل ما عند ابن إسحاق. والراجح أن حصول الرسول ﷺ على الحلة كان عن طريق الاهداء كما في الصحيح وليس عن طريق الاستلاب كما ذكر ابن إسحاق. ويؤيد ذلك ما رواه أبويعلى بإسناد قوي أنه لما قدم أكيدر أخرج قباء من ديباج منسوجا بالذهب فرده النبي ﷺ عليه، ثم إنه وجد في نفسه من رد

---

(٧٢) انظرها في أحمد: المسند (٣/ ٣٧)، أبوعبيد: الأموال، ص ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦، ابن كثير: البداية والنهاية (٥/ ١٥ ـ ١٦)، وفي إسناد أحمد وأبي عبيد: أبوالخطاب المصري ـ مجهول، وفي إسناد ابن كثير: عبدالعزيز بن عمران ـ متروك.

(٧٣) من رواية أبي إسحاق عن عاصم عن أنس كما ذكر ابن حجر في الإصابة (١/ ٤١٣) في ترجمة خالد بن الوليد. والحديث يتقوى بالشواهد. وقد ثبت له شاهد من حديث ابن إسحاق الذي ذكرناه بعد هذا مباشرة. ورواه ابن إسحاق بنفس سند أبي إسحاق، وقد صرح بالسماع، فيكون حسنا ـ انظر: ابن هشام (٤/ ٢٣٢). وهو شاهد على حديث أبي إسحاق.

(٧٤) من رواية ابن إسحاق، مرة معلقا ومطولا ـ ابن هشام (٤/ ٢٣١) ومرة موصولا ومختصرا بإسناد حسن ـ ابن هشام (٤/ ٢٣٢).

(٧٥) روى ابن إسحاق قصة أسره بإسناد معلق، وروى قصة القدوم بقباء أكيدر وتعجب المسلمين منه، وحديث الرسول ﷺ في ذلك، رواه بإسناد حسن ـ ابن هشام (٤/ ٢٣١ ـ ٢٣٢)، ورواه ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة مرسلا وليس فيه حديث مناديل سعد وفيه اختلاف يسير، والترمذي: السنن (٦/ ٤٥/ ك. اللباس/ ب. ماجاء في الرخصة في لبس الحرير/ ١٧٢٣) من غير طريق ابن إسحاق، وقال: «هذا حديث صحيح»، ورواه بمثله النسائي في سننه (٨/ ١٩٩/ ك. الزينة/ ب. لبس الديباج المنسوج)، وفي لفظه: «وأنه بعث الى النبي ﷺ جبة من ديباج منسوج فيها الذهب، فلبسها. . . الحديث» هكذا مبنيا على المجهول، ولم يذكر أنها جبة أكيدر، والرواية تخالف الصحيح من الأحاديث في حرمة لبس الذهب والحرير. أما حديث الرسول ﷺ عن مناديل سعد فقد رواه الشيخان كما في الحواشي الآتية.

(٧٦) البخاري/ الفتح (١٤/ ٢٧٥/ ح ٣٨٠٢)، ومسلم (٤/ ١٩١٦ ـ ١٩١٧/ ح ٢٤٦٨، ٢٤٦٩).

هديته فرجع به، فقال له النبي ﷺ: «ادفعه إلى عمر» الحديث[٧٧]. وفي رواية عند البخاري أن الرسول ﷺ لم يعطها عمر ليلبسها، ولذا كساها عمر لأخ له كان بمكة مشركا[٧٨]. وفي رواية عن علي أنه أهدي إلى النبي ﷺ حلة سيراء فلبسها فرأى الغضب في وجه النبي ﷺ فشقها بين نسائه[٧٩].

ويفهم من مجموع هذه الأحاديث أن الحلة التي أهديت إلى الرسول ﷺ ليست واحدة[٨٠] وأن الرسول ﷺ والصحابة لم يكونوا يلبسون الحرير، لأن ذلك محرم بالأحاديث الصحيحة كما هو معروف.

وقيل إن الرسول ﷺ أرسل خالدا إلى أكيدر في أربعمائة وعشرين فارسا، وأن غنائمه كانت ثمانمائة من السبي وألف بعير وأربعمائة درع وأربعمائة رمح[٨١].

روى البخاري[٨٢] أن الرسول ﷺ عندما كان بتبوك جاءته هدية ملك أَيْلَة، وهي بغلة بيضاء، وكساه بردا[٨٣]، وصالحه على الجزية.

وأتاه أهل جَرْبَاء وأَذْرُح، فأعطوه الجزية، فكتب لهم كتابا، فهو عندهم[٨٤].

وفي ذات يوم من أيام تبوك تخلف رسول الله ﷺ عن صلاة الفجر لحاجة، وعندما انتهى إلى مكان المسلمين كانوا، قد قدموا عبدالرحمن بن عوف إماما لهم وشرعوا في الصلاة، فصلى رسول الله ﷺ خلف ابن عوف ثم أكمل صلاته[٨٥].

---

(٧٧) قاله ابن حجر في الفتح (١١/ ٤٣/ شرح الحديث ٢٦١٥)، ورواه الذهبي في مغازيه، ص ٦٤٦.

(٧٨) البخاري/ الفتح (١١/ ٤٠/ح ٢٦١٢) و (١١/ ٤٥/ح ٢٦١٩) واسم هذا الأخ عثمان بن حكيم، انظر ابن حجر: الفتح (١١/ ٤٥).

(٧٩) البخاري/ الفتح (١١/ ٤١/ح ٢٦١٤).

(٨٠) انظر في ذلك بالذات: البخاري/ الفتح (١١/ ٤٠/ح ٢٦١٢).

(٨١) من رواية ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة، وهو مرسل وفي إسناده ابن لهيعة - صدوق. انظر ابن كثير: البداية (٥/ ٢٠).

(٨٢) البخاري/ الفتح (١٢/ ٢٥٤/ح ٣١٦١)، واسم ملك أيلة يحنة بن رؤبة كما ذكر أهل السير - انظر: ابن إسحاق - ابن هشام (٤/ ٢٣٠ - ٢٣١)، الواقدي (٣/ ١٠٣١).

(٨٣) قال ابن حجر في الفتح (١٢/ ٢٥٤/ شرح الحديث (٣١٦١) إن فاعل كسا هو النبي ﷺ.

(٨٤) ابن اسحاق - معلقا - ابن هشام (٣/ ٢٣٠).

(٨٥) مسلم (١/ ٢٣٠ - ٢٣١/ح ٢٧٤) ولم يذكر أن ذلك كان في تبوك، وذكر غيره أنه في تبوك، انظر - مثلا: مالك الموطأ (١/ ١٥٧ - ١٥٨) وأحمد: المسند (٣/ ٢٩٣) و(٤/ ٢٤٤ - ٢٤٧ - ٢٤٩ - ٢٥١)، أبادواد: السنن (١/ ١٠٣ - ١٠٤ ك. الطهارة ب. المسح على الخفين/ح ١٤٩)، ابن سعد (٣/ ١٢٨ - ١٢٩) بإسناد رجاله ثقات ولكن في تحديد زمان ومكان الواقعة سأل ابن سعد شيخه الواقدي فأفاده أنها في تبوك.

ويروى أن الرسول ﷺ أرسل دِحْيَة بن خَليفة الكَلبي إلى هرقل، وهو بتبوك، وأن هرقل أرسل التَّنوخِي ليتعرف له على بعض علامات نبوة محمد ﷺ(٨٦). ولو ثبت هذا فيكون إرسال دحية للمرة الثانية.

الرجوع إلى المدينة:

لم يلق الرسول ﷺ حربا من الأعداء، فرجع إلى المدينة منتصرا، بعد أن أقام بتبوك عشرين ليلة(٨٧). وفي الطريق أتوا على الحِجْر من ديار ثَمود، الذين غضب الله عليهم لعصيانهم أمره بعدم ذبح ناقة نبي الله صالح(٨٨)، وعندما سارع الناس إلى دخول مساكن أهل الحجر، نهاهم الرسول ﷺ(٨٩)، وقال لهم: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين»، ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي(٩٠)، وعندما نزلوا الحجر استقوا من آبارها وعجنوا من مائها العجين، فنهاهم عن ذلك، وأمرهم بطرح ذلك العجين للإبل ويهرقوا ذلك الماء، وأن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة(٩١).

وعندما اشتكى المسلمون إلى النبي ﷺ ما أصاب إبلهم من الإجهاد، دعا الله أن ينشطها، فنشطت بهم حتى بلغوا المدينة(٩٢).

وحاول جماعة من المنافقين الملثمين أن يطرحوا الرسول ﷺ عن راحلته من رأس عَقَبة بالطريق، في عتمة من الليل، فشعر بمؤامرتهم، فأمر بإبعادهم عنه(٩٣). فلما دنا رسول الله ﷺ من المدينة، خرج الصبيان إلى

---

(٨٦) أحمد: المسند (١/ ٢٠٣)، (٣/ ٤٤٢)، (٤/ ٧٤)، (٥/ ٢٩٢)، قال ابن كثير في البداية (٥/ ١٩) عن هذا الحديث: «هذا حديث غريب، وإسناده لا بأس به، تفرد به الإمام أحمد» وقال السندي: الذهب المسبوك، ص٣٢٨: «إسناده جيد، وفيه سعد بن أبي راشد ـ مقبول، وعبدالله بن خثيم ـ صدوق، ويحيى بن سليم ـ صدوق، وإسحاق بن عيسى ـ صدوق».

(٨٧) موارد الظمآن، ص ١٤٥، بإسناد صحيح.

(٨٨) البخاري/ الفتح (١٣/ ١١٧ ـ ١١٨/ح ٣٣٧٧)، ومسلم (٤/ ٢٢٨٥ ـ ٢٢٨٦/ح ٢٩٨٠).

(٨٩) أحمد: المسند (٤/ ٢٣١) وأورده ابن كثير البداية (٥/ ١٣)، وقال: «إسناده حسن ولم يخرجوه».

(٩٠) البخاري/ الفتح (١٣/ ١١٩/ح ٣٣٧٨)، مسلم (٤/ ٢٢٨٦/ح ٢٩٨١).

(٩١) البخاري/ الفتح (١٣/ ١١٩/ح ٣٣٧٨ ـ ٣٣٧٩)، مسلم (٤/ ٤٠/ح ٢٩٨١).

(٩٢) أحمد: المسند (٦/ ٢٠) بإسناد حسن، وموارد الظمآن، ص٤١٨.

(٩٣) أحمد: المسند (٥/ ٣٩٠ ـ ٣٩١) بإسناد حسن، ويشهد للقصة بالصحة ما رواه مسلم (٤/ ٢١٤٤/ح ٢٧٧٧٩) من حديث حذيفة عنهم، وروى من طريقين آخرين ضعيفين ـ انظر البيهقي: دلائل النبوة (٥/ ٢٥٦ ـ ٢٥٩).

ثنية الوداع لتلقيه[٩٤]، ومعهم النساء والولائد يقلن:

طلع البدر علينا * من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا * ما دعا لله داع[٩٥]

وكان أول ما فعله الرسول ﷺ عند دخوله المدينة أن صلى في مسجده ركعتين ثم جلس للناس فجاءه المنافقون المتخلفون عن الغزوة فاعتذروا بشتى الأعذار، فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم لله[٩٦]، وجاءه الثلاثة المخلفون، وكان من خبرهم ما سبق ذكره.

وقفة مع بعض الآيات التي نزلت بمناسبة غزوة تبوك:

نزول القرآن حول أحداث موقعة تبوك:

نزلت آيات كثيرة من سورة براءة ـ التوبة ـ حول موضوع هذه الغزوة، نزل بعضها قبل الخروج، وبعضها بعد الخروج وهو مسافر، وبعض آخر منها بعد الرجوع إلى المدينة. وقد اشتملت على ذكر ظروف الغزوة، وفضح المنافقين، وفضل المجاهدين المخلصين، وقبول التوبة من المؤمنين الصادقين، الخارجين منهم في الغزوة والمتخلفين.

١ ـ قال تعالى: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم، خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا، عسى الله أن يتوب عليهم، إن الله غفور رحيم﴾[٩٧]

قال الطبري[٩٨]: «وقد اختلف أهل التأويل في المعني بهذه الآية، والسبب الذي من أجله أنزلت فيه. فقال بعضهم: نزلت في عشرة أنفس كانوا تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، منهم أبولبابة،

---

(٩٤) البخاري/ الفتح (١٦/ ٢٥٩/ح ٤٤٢٦ ـ ٤٤٢٧).
(٩٥) قاله ابن حجر في شرح الحديثين المذكورين (٤٤٢٦ ـ ٤٤٢٧): «وقد روينا بسند منقطع في الحلبيات قول النسوة لما قدم النبي ﷺ المدينة: طلع البدر علينا... فقيل كان ذلك عند قدومه من الهجرة وقيل عند قدومه من غزوة تبوك». وانظر الكلام على هذه المسألة في مكانها من حديث الهجرة.
(٩٦) البخاري/ الفتح (١٦/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥/ح ٤٤١٨)، مسلم (٤/ ٢١٢٣/ح ٢٧٦٩).
(٩٧) التوبة: ١٠٢.
(٩٨) التفسير (١٤/ ٤٤٦ ـ ٤٥٣/ شاكر).

فربط سبعة منهم أنفسهم إلى سواري المسجد عند مقدم النبي ﷺ من تبوك، توبة منهم من ذنبهم... وقال آخرون: الذين ربطوا أنفسهم كانوا ثمانية... وقال آخرون: كانوا سبعة... وقال آخرون: بل نزلت في أبي لبابة بسبب تخلفه عن تبوك. وقال بعضهم: عني بهذه الآية الأعراب...» وذكر الطبري المرويات فيمن قال بكل قول من الأقوال المذكورة... وكلها روايات لا تقوم بها الحجة حسب دراسة الدكتور السندي[٩٩] لها، ولذا قال الطبري[١٠٠]: «وأولى هذه الأقوال بالصواب في ذلك، قول من قال: نزلت هذه الآية في المعترفين بخطأ فعلهم في تخلفهم عن رسول الله ﷺ، وتركهم الجهاد معه، والخروج لغزو الروم، حين شخص إلى تبوك، وأن الذين نزل فيهم ذلك جماعة، أحدهم أبولبابة... فقد تبين أن هذه الصفة لم تكن إلا لجماعة فعلت ذلك، فيما نقله أهل السير والأخبار وأجمع عليه أهل التأويل، إلا جماعة من المتخلفين عن غزوة تبوك... منهم أبولبابة، لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك».

٢ - قال الله تعالى: ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب، قل: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون﴾[١٠١].

لقد روى الطبري[١٠٢] عدة آثار في سبب نزول هذه الآية، منها أثر صحيح عن ابن عمر مضمونه أن رجلا قال في مجلس في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عند اللقاء، فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، لاخبرن رسول الله ﷺ. فبلغ ذلك النبي ﷺ، ونزل القرآن، قال ابن عمر: فأنا رأيته متعلقا بحقب ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة، وهو يقول:

---

(٩٩) الذهب المسبوك، ص ص ١١٢ - ١٢٣.
(١٠٠) التفسير (١٤/٤٥٣/ شاكر).
(١٠١) التوبة: ٦٥.
(١٠٢) التفسير (١٤/٣٣٣ أثر رقم ١٦٩١٢) بإسناد صحيح.

يارسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: «أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون، لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم». واستدل بعضهم بهذه الآية على أن الجد واللعب في إظهار كلمة الكفر سواء ولا خلاف بين الأئمة في ذلك(١٠٣).

ويقول الله تعالى تعقيبا على ما صدر من هذا الرجل ﴿لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم، إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين﴾(١٠٤).

إن أصح ما روي في تفسير هذه الآية أن الذي عُفِيَ عنه هو محشي ابن حمير الأشجعي، وذلك أنه أنكر منهم بعض ما سمع(١٠٥).

معجزات وقعت للرسول ﷺ في أحداث تبوك:

١) شكا الصحابة (رضي الله عنهم) إلى النبي ﷺ ما برواحلهم من جهد، فأمر أن يمروا بها عليه عند مكان ضيق، فأخذ ينفخها ويقول: «اللهم احمل عليها في سبيلك إنك تحمل على القوي والضعيف وعلى الرطب واليابس في البر والبحر»، فما بلغوا المدينة حتى جعلت تنازعهم أزمتها، فقال الراوي ـ فُضَالة بن عُبيد الأنصاري: «هذه دعوة النبي ﷺ على القوي والضعيف، فما بال الرطب واليابس، فلما قدمنا الشام غزونا غزوة قبرص في البحر، فلما رأينا السفن في البحر وما يدخل فيها عرفت دعوة النبي ﷺ»(١٠٦)

٢) روى الواقدي عدة آثار عن معجزات وقعت للرسول ﷺ ضمن أحداث غزوة تبوك، ولكن كلها ضعيفة، مثل الحية التي اعترضت سبيل

---

(١٠٣) انظر ـ مثلا ابن الجوزي: زاد المسير (٣/ ٤٦٤ ـ ٤٦٥).
(١٠٤) التوبة: ٦٦.
(١٠٥) من رواية ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن كعب بن مالك بإسناد حسن كما جاء عند السيوطي: الدرالمنثور (٣/ ٢٥٤)، وعن بقية التفاسير انظر السيوطي: الدرالمنثور، والطبري: التفسير (١٤/ ٣٣٦ ـ ٣٣٧)، وابن كثير: التفسير (٤/ ١١٢).
(١٠٦) أحمد المسند (٦/ ٢٠) بإسناد حسن.

المسلمين في غزوة تبوك[١٠٧]، ومعجزة نبع الماء من أصابعه[١٠٨]، ومعجزة تكثير الطعام[١٠٩].

٣) وكذلك روى السيوطي آثارا عن معجزات وقعت للرسول ﷺ وكلها ضعيفة، مثل نزول المطر بدعاء الرسول ﷺ في غزوة تبوك[١١٠]، ولقاء إلياس (عليه السلام) بالرسول ﷺ في هذه الغزوة[١١١].

وكل هذه المعجزات التي وردت عند الواقدي والسيوطي بأسانيد ضعيفة وقع مثلها بأسانيد صحيحة جاء ذكرها في ثنايا هذا الكتاب، اللهم إلا قصة إلياس (عليه السلام)، فهي لم ترد من قبل بإسناد صحيح أو سقيم.

الأحكام والفوائد والدروس المستنبطة من أحداث غزوة تبوك:

١ ـ إن في صلاة النبي ﷺ خلف عبدالرحمن بن عوف (رضي الله عنه) تكريماً لأحد أصحابه، ودليلا على جواز إمامه المفضول وصلاة الأفضل خلفه.

٢ ـ سأل معاذ بن جبل (رضي الله عنه) الرسول ﷺ عن عمل يدخله الجنة، وهم في طريق العودة من تبوك، فأجابه الرسول ﷺ بأن رأس هذا الأمر الشهادة وقوامه الصلاة والزكاة وذروة سَنَامِه الجهاد[١١٢].

٣ ـ كان الرسول ﷺ يجمع بين صلاتي الظهر والعصر، وبين صلاتي المغرب والعشاء[١١٣].

٤ ـ سئل النبي ﷺ عن سترة المصلي، فأجاب بأنها مثل مؤخرة الرحل[١١٤].

٥ ـ أقام ﷺ بتبوك عشرين ليلة يقصر الصلاة[١١٥]. وبهذا استدل العلماء

---

(١٠٧) المغازي (٣/١٠٠٨ ـ ١٠١٥) بإسناد موضوع.
(١٠٨) المصدر نفسه (٣/ ١٠٤٠ ـ ١٠٤٢).
(١٠٩) المصدر نفسه (٣/١٠١٧ ـ ١٠١٨).
(١١٠) الخصائص الكبرى (٢/١٠٦).
(١١١) المصدر نفسه (٢/١٠٩) بإسناد موضوع ومتن منكر.
(١١٢) أحمد: المسند (٥/٢٤٥ ـ ٢٤٦) بإسناد حسن.
(١١٣) الزرقاني: شرح موطأ مالك (٢/ ٥٥ ـ ٥٨).
(١١٤) النسائي: السنن (٢/٦٢/ ك. القبلة/ ب. سترة المصلي) بإسناد صحيح.
(١١٥) الهيثمي: موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، ص١٤٥، بإسناد صحيح.

على جواز القصر مادام المرء في حالة سفر ولم ينو الإقامة، وانظر الفقرة ١٧ بعد قليل.

٦ - قال ﷺ عن جلد الميتة: «دباغها طهورها» وذلك عندما طلب ماء من بيت بتبوك فأتي له به في قربة من جلد فشرب(١١٦).

٧ - أهدر الرسول ﷺ ثنية رجل عض يد رجل آخر فانتزعها بقوة ومعها الثنية(١١٧).

٨ - جواز الهجر أكثر من ثلاث ليالٍ لسبب شرعي كما في أمر الرسول ﷺ بمقاطعة الذين خلفوا لمدة خمسين ليلة.

٩ - إن من يمر بديار المغضوب عليهم والمعذبين، لا ينبغي له أن يدخلها، ولا أن يقيم بها، بل عليه أن يسرع، ويتقنع بثوبه حتى يجاوزها، ولا يدخل عليهم إلا باكيا معتبرا، كما فعل الرسول ﷺ وأمر به عندما مر بديار ثمود بالحجر، وكما فعل في وادي محسر بين منى وعرفة، فإنه المكان الذي أهلك الله فيه الفيل وأصحابه(١١٨).

١٠ - تصريح الإمام للرعية، وإعلامهم بالأمر الذي يضرهم ستره وإخفاؤه ليتأهبوا له، وجواز ستر غيره عنهم والكناية عنه للمصلحة، كما فعل الرسول ﷺ في أمر الإعلام بوجهته حين عزم على غزوة تبوك(١١٩).

١١ - إذا استنفر الإمام الناس للجهاد لزمهم النفير جميعا، ولا يشترط في وجوب ذلك تعيين كل واحد منهم بعينه، وهو أحد المواضع الثلاثة التي يصبح فيها الجهاد فرض عين، والثاني: إذا حضر العدو البلد، والثالث إذا حضر بين الصفين(١٢٠).

١٢ - وجوب الجهاد بالمال كما يجب بالنفس، وهذه إحدى روايتي أحمد، قال ابن القيم(١٢١): «وهو الصواب الذي لا ريب فيه».

---

(١١٦) أبوداود: السنن (٤/ ٣٦٨ - ٣٦٩/ ك. اللباس/ ب. في اهب الميتة/ح ٤١٢٥) بإسناد حسن.
(١١٧) البخاري/ الفتح (١٦/ ٢٤٠/ح ٤٤١٧)، مسلم (٣/ ١٣٠٠ - ١٣٠١/ح ١٦٧٣ - ١٦٧٤).
(١١٨) انظر ابن القيم: زاد المعاد (٣/ ٥٦٠).
(١١٩) انظر: المرجع نفسه (٣/ ٥٥٨).
(١٢٠) انظر: المرجع والمكان نفسيهما.
(١٢١) انظر: المرجع والمكان نفسيهما.

١٣ ـ إن في قول الرسول ﷺ لعثمان (رضي الله عنه) عندما رأى سخاء بذله: «ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم» منقبة كبرى لعثمان تضاف إلى مناقبه الأخرى الكثيرة والتي أعظمها البشرى له بالجنة.

١٤ ـ إن العاجز عن الجهاد والذي لا حرج عليه إذا تخلف عنه هو الذي يبذل جهده ويتحقق عجزه، كما في حالة الذين جاءوا يسألون الحملان فلم يجد الرسول ﷺ ما يحملهم عليه، فرجعوا يبكون لما فاتهم من شرف وأجر الجهاد.

١٥ ـ مشروعية استخلاف الإمام، إذا سافر، رجلا من الرعية على الضعفاء والنساء والذرية، كما في حالة علي (رضي الله عنه)، ويكون نائبه من المجاهدين وهي خلافة خاصة، أما الاستخلاف العام والخاص بالشؤون الأخرى فكان لمحمد بن مسلمة[١٢٢].

١٦ ـ لا يجوز شرب ماء آبار ثمود ولا الطبخ منه ولا العجن به، ولا الطهارة به، ويجوز أن يسقى منه البهائم، إلا ما كان من بئر الناقة، فيجوز الاستفادة من مائها في كل شيء[١٢٣].

١٧ ـ أقام النبي ﷺ عشرين يوما يقصر الصلاة، ولم يقل للأمة: لا يقصر الرجل الصلاة إذا أقام أكثر من ذلك، وهذه الإقامة في حال السفر لا تخرج عن حكم السفر، سواء طالت أم قصرت إذا كان غير مستوطن ولا عازم على الإقامة بذلك الموضع، وكان ذلك عمل بعض أئمة السلف مثل سعد بن أبي وقاص وابن عمر وأنس بن مالك وعبدالرحمن بن سَمُرة، وهو الصواب كما قال ابن القيم[١٢٤].

١٨ ـ إن من مراتب الجهاد الأربعة: الجهاد بالقلب، كما في حال الذين حبسهم العذر وقال عنهم الرسول ﷺ: «إن بالمدينة أقواما... الحديث» والمراتب الأخرى: اللسان، والمال، والبدن، كما في الحديث:

---

(١٢٢) و (١٢٣) المرجع نفسه، ص ٥٦٠.

(١٢٤) المرجع نفسه، ص ص ٥٦١ ـ ٥٦٣. وانظر فيه اختلاف السلف والخلف في ذلك، ص ص ٥٦١ ـ ٥٦٢، ٥٦٣ ـ ٥٦٥.

«جاهدوا المشركين بألسنتكم وقلوبكم وأموالكم»[١٢٥].

١٩ ـ جواز إحراق وهدم أمكنة المعصية، كما فعل الرسول ﷺ بمسجد الضِرَار.

٢٠ ـ جواز إخبار الرجل عن تفريطه وتقصيره في طاعة الله ورسوله، كما في رواية كعب لقصة تخلفه عن غزوة تبوك.

٢١ ـ جواز مدح الإنسان نفسه بما فيه من الخير، إذا لم يكن ذلك على سبيل الفخر والترفع، كما فعل كعب (رضي الله عنه).

٢٢ ـ إن بيعة العقبة الكبرى كانت من أفضل مشاهد الصحابة، حتى إن كعبا كان لا يراها دون مشهد بدر.

٢٣ ـ لا ينبغي للإمام أو المطاع أن يهمل من تخلف عنه في بعض الأمور، بل يذكره ليراجع الطاعة ويتوب، كما فعل الرسول ﷺ عندما سأل عن كعب بتبوك.

٢٤ ـ إن رسول الله ﷺ كان يقبل علانية من أظهر الإسلام من المنافقين، ويكل سريرته إلى الله، ويجري عليه حكم الظاهر، ولا يعاقبه بما لم يعلم من سره، كما فعل الرسول ﷺ مع الذين جاءوه يعتذرون له عن تخلفهم.

٢٥ ـ إن في سجود كعب حين سمع صوت المبشر دليلا ظاهرا على أن تلك كانت عادة الصحابة، وهو سجود الشكر عند حدوث النعم المتجددة، والنقم المندفعة، وقد سجد أبوبكر (رضي الله عنه) لما جاءه خبر مقتل مسيلمة الكذاب[١٢٦]، وسجد علي عندما وجد ذا الثدية مقتولا في الخوارج[١٢٧] وهم في هذا يقتدون بالرسول ﷺ. فقد سجد رسول الله ﷺ عدة مرات لأحداث سارة، وقال أبوبكْرَة: «كان رسول

---

(١٢٥) أخرجه أبوداود: السنن (٣/ ك. الجهاد/ح ٢٥٠٤، وأحمد: المسند (٣/ ١٢٤ و ١٥٣)، والنسائي: السنن (٦/ ٧/ ك. الجهاد/ح ٣٠٩٨)، والدارمي: السنن (٢/ ٢١٣/ ك. الجهاد)، والحاكم: المستدرك (٢/ ٨١) وصححه ووافقه الذهبي وابن حبان: موارد الظمآن (ح ١٦١٨)، ولفظ ابن حبان: «جاهدوا المشركين بأيديكم وألسنتكم».

(١٢٦) أخرجه البيهقي: السنن الكبرى (٢/ ٣٧١/ ك. الصلاة/ ب. سجود (الشكر).

(١٢٧) أحمد المسند (٢/ ٨٤٨/ شاكر) وصحح شاكر إسناده.

الله ﷺ إذا أتاه أمر يسره خر لله ساجدا»[١٢٨]، ومن أمثلة ذلك سجوده عندما أتاه خبر إسلام همدان على يد علي بن أبي طالب[١٢٩].

٢٦ ـ استحباب الصدقة عند التوبة بما قدر عليه من المال، كما جاء في موقف كعب وحواره مع الرسول ﷺ عندما أراد التصدق بكل ماله، ولكن الرسول ﷺ استحب له الثلث، فأمسك فقط سهمه الذي بخيبر[١٣٠].

٢٧ ـ مشروعية أخذ الجزية من أهل الكتاب، وأنهم يحرزون بذلك دماءهم وأموالهم، فقد رأيت أن الروم اختفوا وتفرقوا عن مواجهة رسول الله ﷺ حينما وصل تبوك، وجاءه نصارى العرب فصالحوه على الجزية.

٢٨ ـ إن موقف كعب من رسالة ملك غسان وتعليقه على طلبه، فيه صورة رائعة لما ينبغي أن يكون عليه إيمان المسلم بربه تعالى، وإن الابتلاء لابد أن يكشف عن المزيد من الإيمان وشدة الإخلاص.

٢٩ ـ لقد وطدت هذه الغزوة سلطان الإسلام في شمالي شبه الجزيرة العربية، ومهدت لفتوح الشام التي استعد لها الرسول ﷺ بإعداد جيش أسامة قبيل وفاته، فأنفذه أبوبكر (رضي الله عنه)، ثم أتبعه أبوبكر بجيوش الفتح الأخرى التي انساحت في بلاد الشام والعراق، وكانت بداية تحرير شعوب تلك المناطق من عبودية القيصرية والكسروية.

---

(١٢٨) أبوداود: السنن (٣/ ٢١٦/ ك. الجهاد/ح ٢٧٧٤) وصححه الألباني كما في صحيح أبي داود، رقم ٢٤٧٩، الترمذي: السنن (٥/ ٣٠٤/ح ١٥٧٨/ الدعاس)، وقال: حسن غريب، الألباني: صحيح سنن ابن ماجه (١/ ٢٣٣/ ك. الصلاة/ح ١٣٩٤) وقال: «حسن»، وقال ابن القيم: زاد المعاد (٣/ ٥٨٤) عن هذه الآثار المذكورة في سجود الشكر: «وهي آثار صحيحة لا مطعن فيها».

(١٢٩) البخاري/ الفتح (١٦/ ١٨٤/ح ٤٣٤٩) وستأتي قصة علي مع همدان في الفصل السابع والعشرين ـ المبحث الثاني: «بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد إلى اليمن».

(١٣٠) أخرجه أبوداود: السنن (٣/ ٦١٤/ ك. الإيمان والنذور/ح ٣٣٢١)، بإسناد صحيح. ولمزيد من الفوائد والتفاصيل، انظر ابن القيم: زاد المعاد (٣/ ٥٥٨ ـ ٥٩٢)، ابن حجر: الفتح (١٦/ ٢٥١ ـ ٢٥٤).